سورة يوسف - دراسة بلاغية -

Surat Yusuf: A Rhetorical Study

اعداد

أ.د. عبد الناصر طه مزهر

Prepared by

Prof.Dr.Abdulnaser Taha Mezher

الجامعة العراقية - كلية العلوم الاسلامية

abdulnaser.mazher@aliraqia.edu.iq

ملخص البحث

يتناول هذا البحث بالدراسة البلاغية مظاهر البيان القرآني في سورة يوسف عليه السلام، من خلال استجلاء أبعادها الفنية في علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع. وقد بُنيت الدراسة على منهج تحليلي يُبرز تنوع الأساليب القرآنية ووظائفها الدلالية والجمالية في السورة.

خلصت الدراسة إلى أن سورة يوسف تمثل نموذجًا متكاملًا للبيان القرآني، إذ جمعت بين دقة المعنى وروعة المبنى، فجاءت نصًّا قصصيًّا معجزًا يتجاوز حدود السرد ليؤسس خطابًا إصلاحيًا يربط بين التوجيه التربوي والجمالية البيانية، ويؤكد ذلك أنّ البلاغة القرآنية ليست زخرفًا لفظيًا، بل بناء متكامل يرسّخ الهداية، ويكشف عن سرّ الإعجاز الذي عجزت البشرية عن الإتيان بمثله.

Abstract:

This research deals, through a rhetorical study, with the manifestations of Qur'anic eloquence in Surah Yusuf (peace be upon him), by elucidating its artistic dimensions within the three sciences of rhetoric: al-Ma'ani (semantics), al-Bayan (eloquence), and al-Badi' (embellishment). The study is built upon an analytical method that highlights the diversity of Qur'anic styles and their semantic and aesthetic functions in the Surah.

The study concluded that Surah Yusuf represents an integrated model of Qur'anic eloquence, as it combines precision of meaning with the beauty of structure. Thus, it appears as a miraculous narrative text that transcends the limits of storytelling to establish a reformative discourse linking educational guidance with rhetorical aesthetics. This confirms that Qur'anic rhetoric is not a mere verbal ornament, but rather an integrated construction that reinforces guidance and unveils the secret of the miracle which humanity has been incapable of producing the like thereof.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم وجعله معجزة خالدة ببيانه وبلاغته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح العرب لسانًا وأبينهم بيانًا وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين. وبعد..

إنّ البلاغة القرآنية تتجلّى في علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، حيث يكشف كل علمٍ منها جانبًا من أسرار التعبير القرآني ودقّته. وتُعدّ سورة يوسف عليه السلام نموذجًا بديعًا لهذه الفنون البلاغية، إذ احتوت على صور راقية من البيان والإعجاز، امتزج فيها التشبيه بالاستعارة، والقصر بالإيجاز، والجناس بالسجع، مما يجعلها ثريّة بالدلالات البيانية التي تُغني القارئ وتثري الدارس.

وقد جاء هذا البحث ليقف عند بعض مظاهر علم المعاني والبيان والبديع في سورة يوسف، مركزًا على الأساليب البلاغية من إسناد وقصر وإيجاز وتشبيه واستعارة ومحسنات بديعية، مع محاولة تحليل النصوص القرآنية وتحليلها بلاغيًّا، لإظهار جوانب الإعجاز فيها.

وكانت خطة البحث تتكون من مباحث ثلاثة ، ففي المبحث الأول، عُرضت أبرز ملامح علم المعاني، حيث تركزت الدراسة على الإسناد الخبري بأشكاله المختلفة، كالعدول عن الفاعل الحقيقي وإسناد أفعال العقلاء إلى الجمادات، ثم أسلوب القصر بصوره المتعددة التي عكست دقة الإيجاز وحصر المعنى في إطار مخصوص، إضافة إلى التوازن بين الإيجاز والإطناب والمساواة في سياق السرد القصصي، بما يعكس انسجام المبنى مع المعنى.

أما المبحث الثاني، فقد خصّص لعلم البيان، من خلال إبراز دور التشبيه في تقريب المعاني، والاستعارة في نقل الألفاظ من المجال الحسي إلى المجال المعنوي، مما منح الخطاب القرآني طاقة تصويرية عالية عززت من أثره في نفس المتلقي.

وفي المبحث الثالث، تناول البحث جانب البديع، حيث كشفت الدراسة عن المحسنات اللفظية مثل: الجناس، السجع، الترصيع، وما أضافته من إيقاع وجمال صوتي، إلى جانب المحسنات المعنوية كالتضاد والمقابلة والمبالغة، التي أسهمت في إبراز المعاني وترسيخها في ذهن القارئ.

المبحث الاول
علم المعاني في سورة يوسف

مفهوم علم المعاني : هو أحد علوم البلاغة الثلاثة، الذي يُعنى بدراسة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أي ملاحظة الظروف والسياقات التي يَرِد فيها الخطاب، وكيف يُصاغ التعبير بما يلائم تلك الأحوال ليكون أكثر تأثيراً وإقناعاً. فهو العلم الذي يبحث في العلاقات بين المعنى والمقام، ويهتم بتوظيف الأساليب البلاغية بما يجعل الخطاب محققاً أعلى درجات البيان والإفهام(١).

تعريف علم المعاني في اللغة المعاني جمع (معنى) - مشتقة من الفعل (عنى) الذي يدل على الاهتمام أو القصد يقال (عنى الامر ابي أهتم به و قصده والمعني هو ما يقصد من اللفظ وما تقل عليه الكلمات من دلالات وأغراض الاصلاحات واصطلاحاً : هو علم يعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال(٢)

وينحصر علم المعاني فى ثمانية أبواب (أحوال الإسناد الخبرىّ. - أحوال المسند إليه - أحوال المسند- أحوال متعلّقات الفعل – القصر- الإنشاء- الفصل والوصل - الإيجاز والإطناب والمساواة) وسنذكر بعض منها متخذين سورة يوسف نموذج للشواهد القرآنية ،و التي اعجزت في البيان البلاغي، لتعدد الاوجه البلاغية فيها ، مقتصرين في بحثنا على الاسناد الخبري والقصر والايجاز والاطناب والمساواة

اولاً : اسلوب الإسناد الخبري في سورة يوسف

إنّ الاسناد الخبري من الأساليب البلاغية التي وجدت في النصوص القرآنية فهو محور لانتظام الكلام وارتباطه بين المسند والمسند إليه ومن وجوه الإسناد ما يُسمّى بالإسناد الخبري وهو نسبة الفعل أو المعنى إلى غير فاعله الأصلي، إمّا لمراعاة السياق، أو لتوجيه المعنى توجيهاً بلاغياً يخدم الغرض المقصود من الخطاب ،وقد جاءت سورة يوسف بأنواع الإسناد، الذي يعكس دقة التصوير القرآني وعمق دلالته.

(١) ينظر: القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة: دار الجيل، ١٩٩٦م. (ص ٩–١٥).

(٢) ينظر : نفس المصدر ١/ ١٧.

مفهوم الإسناد الخبري :

الإسناد في اللغة هو الاعتماد والإضافة، وفي الاصطلاح: ضم كلمة إلى أخرى بحيث يُفهم منها معناً تاماً[١] أمّا الإسناد الخبري :فهو ضرب من ضروب المجاز العقلي، حيث يُنسب الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، إمّا إلى السبب أو المكان أو الزمان أو غير ذلك، على سبيل التوسع البلاغي والإيجاز الدلالي[٢]

أسلوب الاسناد في سورة يوسف:

من صور الإسناد الخبري في سورة يوسف إسناد الفعل إلى السبب القريب بدل الفاعل الحقيقي كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ \[يوسف: ٣٠].

الإسناد هنا إلى «نسوة» مع أنّ القائلات كنّ بعض نساء المدينة لا جميعهن، فجاء التعبير على سبيل التعميم لتكثير أثر الخبر، وإبراز شيوع الفضيحة.[٣]

ومن الصور الاخرى إسناد أفعال العاقلين إلى غير العاقل كقوله تعالى : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ \[يوسف: ٤].

أُسند السجود إلى الكواكب والشمس والقمر، وهي جمادات لا تعقل، لكن أُعطيت أفعال العقلاء تصويراً للرؤيا وما تحمله من رمزية، وهو من المجاز العقلي الذي يعكس قوّة التصوير القرآني ودقته في نقل المشهد.[٤]

ثانياً : أسلوب القصر في سورة يوسف

وهو من أساليب علم المعاني يهدف إلى تخصيص الحكم في طرف دون آخر، أو نفيه عمّا سواه، وهو من الأدوات البلاغية التي تُثري الدلالة وتعمّق الأثر النفسي في المتلقي ـ مفهوم القصر :

القصر لغةً: الحبس والمنع. واصطلاحًا: تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص.[٥] وتتنوّع أساليبه بتنوع طرقه منها (القصر بإنما، والقصر بالنفي والاستثناء، والقصر بتقديم ما حقه التأخير،

(١) ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، بيروت: دار الكتب العلمية، ص ٢٧١.

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، بيروت: دار الكتب العلمية ١/ ١١٢.

(٣) ينظر : الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل، بيروت: دار المعرفة ٤٦٢/٢.

(٤) ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار الكتب العلمية ٩/ ١٢١.

(٥) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، تحقيق:د. عبد الحميد هنداوي ، بيروت: دار المكتبة العصرية ١/ ٣٩٣.

والقصر بضمير الفصل) وهذا التعدد يمنح الأسلوب القرآني مرونة وقدرة على إبراز المعاني وفق مقتضيات الحال.[١]

أسلوب القصر في سورة يوسف:

إنّ أسلوب القصر في سورة يوسف جاء متنوّعاً بين النفي والاستثناء، والتقديم والتأخير، و»إنما»، وضمير الفصل، وكلها خدمت البناء البلاغي للسورة. فمرّةً كان القصر موجهاً لترسيخ معاني التوحيد، ومرّةً لإبراز البعد النفسي، ومرّةً لتعميق الإقناع في الحجاج ، ولم يكن مجرد تنويع أسلوبي، بل كان إعجاز في القرآن وإتقان.

وسنذكر شاهد على سبيل المثال لا الحصر للقصر بالنفي والاستثناء كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]. جاءت صيغة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ على سبيل القصر أي: لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ الذين يجازون الحسن بالسيئ، لا فلاح إلا لغير الظالمين [٢]

ثالثاً: أسلوب الإيجاز والإطناب والمساواة في سورة يوسف:

إنّ القرآن الكريم أفصح نصّ بلاغي في العربية، إذ جمع بين الفصاحة والبيان والإعجاز، فجاء أسلوبه متنوعاً بين الإيجاز والإطناب والمساواة ، وهذا التنوع البلاغي إنما يؤكد إعجاز القرآن الكريم، حيث يجمع بين الإيجاز والإطناب والمساواة في سياق واحد من دون الاخلال بجمال النص أو بدلالته ، و سورة يوسف قدّمت نموذجاً بلاغياً متكاملاً من خلال تنوّع الأسلوب بين الإيجاز والإطناب والمساواة، بما يخدم الغرض القصصي ويبرز جماليات البيان القرآني. فجاء الإيجاز موفراً لسرعة السرد، والإطناب معبّراً عن عمق الانفعال، والمساواة محققة للتوازن بين اللفظ والمعنى.

أ / مفهوم الإيجاز :

الإيجاز هو التعبير عن المعنى بلفظ قليل مع وفاء بالغرض، وهو من أرقى مظاهر البلاغة القرآنية ١[٣].

الإيجاز في سورة يوسف :

جاء الايجاز واضحاً في آيات عدة مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، فجاء هذا الرد القصير المكثف جامعاً لموقف يوسف عليه السلام من مراودة امرأة العزيز، دالّاً على قوة

(١) ينظر : ابن يعيش، شرح المفصل، بيروت: دار الكتب العلمية ١/ ١١٢.

(٢) ينظر: الزمخشري ، الكشاف ٢/٤٥٥.

(٣) الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٤٥

إيمانه وسموّ أخلاقه من دون حاجة إلى تفصيل مطوّل[١]

وكذلك قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، إذ اختصر يوسف مشهد عودة البصر إلى أبيه في عبارة موجزة، أغنت عن ذكر تفاصيل طويلة لمسار الحدث[٢].

ب / مفهوم الإطناب :

الإطناب من الأساليب البيانية التي تجلّت في النص القرآني فهو الزيادة في اللفظ على المعنى لفائدة معتبرة، لا على سبيل الحشو أو التطويل المخلّ ، ولا يعدّ عيباً، بل هو من دلائل الفصاحة و ضرورة يقتضيها السياق. وقد عرفه البلاغيون : بأنه زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، وقد تعددت أغراضه بين التكرار والتوكيد والتفصيل بعد الاجمال و ذكر الخاص بعد العام [٣]

الإطناب في سورة يوسف :

وتُعدّ سورة يوسف من السور التي يظهر فيها هذا الفن البلاغي بجلاء، بأغراضه المتعددة نذكر منها الإطناب بالتكرار كما جاء في قوله تعالى :﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] فقد أعيد فعل الرؤية مرتين (رأيتُ/ رأيتُهم) لتثبيت الصورة في ذهن السامع وإبراز أهميتها في سياق النص. [٤]

ج / مفهوم المساواة :

هو أسلوب يتوازن فيه الكلام بين الإيجاز والإطناب، بحيث لا يُزاد فيه على المعنى ما يثقله، ولا يُختزل بما يخلّ بالدلالة وتمثل المساواة وله قيمة جمالية ودلالية تكشف التناسب التام بين المعنى والمبنى في الخطاب القرآني.

عرفه البلاغيون :هو أن تكون العبارة على قدر المعنى من غير إخلال ولا إسهاب و أن يجيء اللفظ مساوياً للمعنى من غير زيادة أو نقصان، بحيث لا يشعر المتلقي بحاجة إلى اختصار أو شرح زائد. فهي حالة وسطية بين الإيجاز الذي قد يُخِل بالمعنى، والإطناب الذي قد يفضي إلى

(١) ينظر: الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م ١٩٨/٢.

(٢) ينظر : ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م ١٢/ ٢٧٢.

(٣) ينظر. الايضاح في البلاغة ٣/ ١٩٦.

(٤) ينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م ٢/ ٤٧١.

تطويل غير مبرَّر.[١]

المساواة في سورة يوسف:

تمثّلت المساواة في العديد من العبارات القرآنية مساوية للمعنى والالفاظ مجسداً عظمة النظم القرآني ،كما وبرزت المساواة في سورة يوسف في مواضع متعددة، لتؤكد انسجام الأسلوب مع طبيعة السرد القرآني الذي يجمع بين الدلالة والجمالية.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣].

هنا المساواة واضحة في الجمع بين حركية الفعل (غلّقت الأبواب) والقول المباشر (هيت لك) فجاء النص على قدر المعنى من دون إفراط أو تفريط، فصوّر الموقف بأوجز عبارة وأدق تصوير[٢].

(١) ينظر : مفتاح العلوم ص ٣١٤.

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٢/ ٢٢٠.

المبحث الثاني
علم البيان في سورة يوسف

مفهوم علم البيان:

وهو الفن الثاني فى علم البلاغة وهو أخص من علم المعاني، فعلم المعاني كالمفرد، والبيان كالمركب فإن صحَّ على ما فيه من البحث، فهو متأخر عنه طبعاً فلذلك أخر عنه وضعاً[١].

ومفهوم البيان في اللغة : هو الكشف والإيضاح[٢]، أما في الاصطلاح : فهو علم يستطاع بمعرفته إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، وتراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة، مع مطابقة كل منها مقتضى الحال، وإنّ تقييد الاختلاف بالوضوح لتخرج الألفاظ المترادفة ، فإنها وإن كانت طرقاً مختلفة لإيراد المعنى الواحد ، فاختلافهما إنما هو في اللفظ والعبارة لا في الوضوح والخفاء ، وينحصر علم البيان في أربعة أقسام : التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية. [٣]

علم البيان في سورة يوسف:

إنّ القرآن الكريم كتاب بيّنٌ وواضح والبيان فيه على مستويين : الأول بيان المعنى الظاهري واللفظي للقرآن الذي يبيّن الأحكام والعقائد، والثاني البيان البلاغي الذي يشمل علم البيان كالتشبيه والاستعارة والكناية ، وتجلت فيه أرقى صور البيان التي جمعت بين جزالة اللفظ وعمق المعنى وروعة التصوير وقد اهتم البلاغيون بدراسة الاوجه البلاغية في سور القرآن الكريم ، ومن هنا نسلط الضوء على علم البيان في سورة يوسف ، محاولين الكشف عن التشبيه و الاستعارة والمجاز والكناية .

أ/ مفهوم التشبيه :

التشبيه في اللغة : مأخوذ من «شَبَّهَ الشيءَ بالشيءِ»، أي: جعله نظيره ومثيله[٤].

أمّا في الاصطلاح البلاغي : فهو الدلالة على مشاركة أمرٍ لآخر في معنى، لا على وجه الاستعارة والتحقيق ، أي: عقد مماثلة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر، وأريد اشتراكهما فيها،

(١) ينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٢/٥.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بين)، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ ١٣/٥٢.

(٣) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٢/٥.

(٤) ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (شبه)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٩٧٩ ٣/٢٢٤.

بأداة من أدوات التشبيه، ملفوظة أو مقدّرة[١]

وينقسم التشبيه الى أقسام بحسب اعتبار حسيّة وعقلية باعتبار طرفيه وباعتبار أداته وباعتبار أغراضه.

التشبيه في سورة يوسف:

جاء البيان في السور القرآنية لبيان التعبير القرآني ودقته وجماله ، ويأتي التشبيه في مقدمة الوسائل البيانية التي يعتمدها النص القرآني في تقريب المعاني المجردة وإيصالها الى العباد ، أمّا في سورة يوسف فقد كانت صور التشبيه البيانية قليلة ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ [يوسف:١٨].

فإنّ الدم في القميص يشبه الكذب من جهة مخالفة لونه لون ما هو فيه، وهذا تشبيه المحسوس بالمعقول[٢]

ومن التشبيه الضمني ماورد في قوله تعالى:﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] فلم يصرّح بالتشبيه مباشرة، بل أتى في صورة تشبيه ضمني، حيث جعل الكواكب والشمس والقمر في حال الساجدين، وهو تشبيه الأجرام العلوية في صورة من يعقل، إذ وصفها بالسجود، وهذا من المجاز العقلي أو التشبيه التمثيلي[٣].

ب/ مفهوم الاستعارة

إنّ الاستعارة أبلغ من التشبيه، ومن المجاز المرسل، لما فيهما من دعوى الاتحاد، فالتشبيه حقيقة والاستعارة مجاز وهي أعلى مراتب الفصاحة [٤]

الاستعارة لغةً: مأخوذة من «العُرْي» بمعنى النقل والانتزاع، طلب العارية، والعارية: ما يتداولوه بينهم، فالاستعارة إذاً مأخوذة من نحو قولهم: استعرت الشيء استعارة. [٥]

واصطلاحاً: هي تشبيه حُذف أحد طرفيه، وذُكر الآخر على سبيل المجاز[٦]

وتقسّم الاستعارة باعتبار الطرفين والجامع و اعتبار ذكر أحد الطرفين ثم تتعدى هذين القسمين الى أقسام متفرعة.

(١) ينظر: أسرار البلاغة ، ص٤٦.
(٢) ينظر: الألوسي ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الكتب ، بيروت ٦/ ٣٩١.
(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٢٤٠/١٢.
(٤) ينظر: عروس الافراح ٢١٩/٢.
(٥) ينظر:لسان العرب ٤/ ٧٨ .
(٦) اسرار البلاغة ،ص ٥٦.

الاستعارة في سورة يوسف:

مثال الاستعارة ما جاء في قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف: ٧٦] فالدرجات مستعارة لقوة الشرف من استعارة المحسوس للمعقول [١] أي: أنّ لفظة (الدرجات) في أصل اللغة يُستعمل في المحسوسات، أي: المراتب التي يُرتقى فيها على السلالم ، وهي من الأمور المادية التي يُدركها البصر غير أنّ السياق القرآني لم يُرِد به حقيقة السُّلَّم أو المرتبة الحسية، بل أراد به المعنى المعقول وهو رفعة الشرف والمنزلة والقدر، فجاء التعبير على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث حُذف المشبَّه (الشرف والرفعة المعنوية)، ورُمِز إليه بالمشبَّه به (الدرجات المادية)، إشارة إلى أنّ منزلة المكرمين في الدنيا والآخرة تُشبه علوّ المرتقى الحسي الذي يشاهده الإنسان كلّ يوم ،وهذه الاستعارة من باب استعارة المحسوس للمعقول، إذ نُقِل اللفظ من مجال التجربة الحسيّة (الدرجة التي يُصعد عليها) إلى مجال القيم المعنوية (الشرف والكرامة) ،هذا الأسلوب البياني أضفى على المعنى قوة التأثير ؛لأنه يجعل السامع ويتخيّل أنّ شرف المكرّمين يُرى كأنّه درجات مرئية تُرتقى، مما يرسّخ المعنى في الذهن ويُقوّي دلالته.

(١) الكشاف ٢/٣٥٥.

المبحث الثالث
مفهوم علم البديع في سورة يوسف

مفهوم علم البديع :

من الاساليب البلاغية إذ اتّسعت صوره وتنوّعت طرائقه بما يضفي على النصوص طلاوةً وجمالاً، ويُبرز المعاني في أبهى صورةٍ ، وتُعدُّ سورة يوسف نموذجاً غنيّاً لهذه الفنون، فقد اشتملت على صور بديعية دقيقة تسهم في ترسيخ المعنى في الذهن، وتؤكد على أبعاد القصة القرآنية في بعدها البياني والجمالي.

تعريف البديع : في اللغة مأخوذ من مادة (بَدَعَ)، أي أنشأ على غير مثال سابق[١].

أمّا في تعريف البديع اصطلاحاً: فهو علم يُعنى بتحسين الكلام وتزيينه بعد تمام مطابقة الكلام لمقتضى الحال (المعاني) ووضوح الدلالة (البيان)، وذلك بوسائل لفظية أو معنوية تزيد النص حسناً ورونقاً، من دون أن تخرجه عن مقتضى البلاغة .[٢]

ويشمل البديع قسمين رئيسين: المحسنات اللفظية مثل:(الجناس،السجع، الترصيع)، والمحسنات المعنوية مثل: (التضاد ، التوكيد، والمقابلة)

البديع في سورة يوسف :

يُعَدّ القرآن الكريم معجزةً خالدةً ببيانه وأسلوبه، حيث اجتمع فيه من وجوه البلاغة ما أعجز الفصحاء والبلغاء علوم البلاغة التي تجلّت فيه علم البديع، إذ اتّسعت صوره وتنوّعت طرائقه بما يضفي على النص القرآني طلاوةً وجمالاً، ويُبرز المعاني في أبهى صورة[٣] وتُعدّ سورة يوسف نموذجاً غنيّاً لهذه الفنون، فقد اشتملت على صور بديعية دقيقة تسهم في ترسيخ المعنى في الذهن، وتؤكد على أبعاد القصة القرآنية في بعدها البياني والجمالي، وسنذكر المحسنات اللفظية والمعنوية.

(١) لسان العرب مادة (بدع) ٦/٨.
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة ، ص٢٥٣.
(٣) ينظر : الكشاف ٣٥٤/٢.

أوّلا: المحسنات اللفظية:

المحسنات اللفظية هي الفنون البلاغية التي تعتمد على جمال اللفظ وصوته، بحيث يزداد الكلام تأثيرًا وجاذبية من خلال تناسق الحروف، توافق الأصوات، وتكرار بعض الكلمات أو الحروف بطريقة فنية، من دون الإخلال بالمعنى أو المضمون [١]

ويعنى بها في علم البديع إبراز الجانب الصوتي والجمالي للكلمة أو العبارة، بما يعزز من رنين النص وتأثيره النفسي على القارئ أو السامع [٢]

وتنقسم المحسنات اللفظية عادة إلى أقسام رئيسية منها: الجناس، السجع، الطباق الصوتي، السراة، وهذه الاقسام لها أسلوبها الخاص في إظهار الجمال الصوتي للفظ العربي [٣] والتي سنذكر منها (الجناس- السجع- الترصيع)

١. الجناس: تعريفه في اللغةً: من (الجنس) أي المماثلة والمشاكلة[٤] ،أمّا في الاصطلاح : هو اتفاق كلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى. وينقسم إلى تام وناقص [٥]

مثال الجناس ما جاء في قوله تعالى:﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠] نجد بين كلمتي «جَهَّزَهُم» و «جَهَازِهِمْ» جناس ناقص، حيث اشتركتا في أصل المادة (ج-ه-ز) وتباينتا في الصيغة والدلالة.

جَهَّزَهُم: أي أعطاهم حاجاتهم وأكمل لهم متاعهم.

جَهَازِهِم: المتاع نفسه الذي أُعطي لهم.

وبذلك يلتقي اللفظان في الجرس والوزن تقريبًا، ويختلفان في المعنى، مما يجعل التركيب مشبعًا بالإيقاع الصوتي والثراء الدلالي.

هذا الجناس يعمّق المعنى؛ إذ يربط بين الفعل (التجهيز) و النتيجة (الجهاز) في وحدة لفظية وصوتية واحدة ويخلق إيقاعًا متناغمًا، مما يزيد من جمالية السياق ووقعه في السمع[٦].

(١) ابن المعتز، البديع، دار الكتب العلمية، القاهرة، ص٥٤.

(٢) ينظر: عبد المتعال الصعيدي، عمدة التحقيق في علم البيان والبديع، دار الفكر العربي، بيروت، ص١٩٨

(٣) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣١٢.

(٤) لسان العرب، مادة (جنس)، دار صادر، بيروت ٤٨٩/٨.

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، ص٢٦٨.

(٦) ينظر:ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المكتبة العصرية، بيروت ٢/ ١٠٨.

٢. السجع:

تعريفه في اللغة : من «سجع الطير»، أي تماثل صوته [١] ، وفي الاصطلاح: هو توافق الفاصلتين أو أكثر في الحرف الأخير [٢] .

مثال السجع من سورة يوسف قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لِيُوسُفُ﴾ [يوسف: ١٢]

تتجلى فصاحة السجع في ضوء توافق الجملة (وقالوا ليوسف) مع ما يسبقها ويلحقها من آيات السورة، حيث يبرز الانسجام الصوتي في تكرار حرف الفاء والسين في (يوسف) ، وهو ما يشيع جوًّا من التوازن النغمي بين المقاطع. كما أن انسجام الفاصلة القرآنية مع ما قبلها من خطاب الإخوة يضفي على المقطع إيقاعًا موحّدًا، يزيد في ترابط المعنى وقوة تأثيره ،فهذا النغم الصوتي ليس مجرد زخرفة لفظية، وإنما يعكس الحالة الانفعالية، إذ جاء قول الإخوة بأسلوب قصير متناسب مع جوّ الحيلة والمكر، وهو ما أشار إليه علماء البلاغة بأنّ السجع في القرآن لا يأتي تكلفًا، بل يوظّف ليخدم المعنى ويقويه [٣].

٣- الترصيع:

تعريفه لغة: من «رصّع»، أي زيّن باللؤلؤ والجواهر.[٤]

واصطلاحًا: أن تتوازن الكلمات في الجملة لفظًا ومعنى.[٥]

مثاله من سورة يوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

نلاحظ هنا التوازن بين عبارتي (تكون حرضًا / تكون من الهالكين)، من حيث البناء اللغوي والتوازي الدلالي، مما يُبرز شدة اليأس في خطاب الإخوة لأبيهم [٦]

ثانياً :تعريف المحسنات المعنوية

المحسنات المعنوية هي من الفنون البلاغية التي تعتمد على جمال المعنى وفصاحته، وليس على الصوت أو الشكل اللفظي للكلمة، بحيث تزداد العبارات بلاغةً من خلال تنظيم المعنى،

(١) لسان العرب، مادة (سجع) ١٠٨/٨.
(٢) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٢٧٥.
(٣) ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: ياسين الأيوبي ، المكتبة العصرية، ص ٢٢١.
(٤) ينظر: لسان العرب، مادة (رَصَعَ)، ج ١٣٥/٨.
(٥) ينظر: ابن أبي الإصبع، بديع القرآن، ص ١٤٢.
(٦) ينظر: ابن الأثير، المثل السائر ٢/ ٥١.

توظيف التضاد، المقابلة، التوكيد، المبالغة، والإيجاز بطريقة تؤثر في المتلقي [١]، وتُستعمل هذه المحسنات لإظهار المعنى بشكل أقوى، أو لإحداث أثر نفسي وفكري لدى القارئ، من دون تغيير في الحقيقة الموضوعية للنص ، وسنقتصر هنا على (التضاد – المقابلة –المبالغة).

١. التضاد: تعريفه في اللغة هو ضد الشيء، أي معاكسته أو عكسه [٢] أمّا في اصطلاحي: هو الجمع بين معنيين متقابلين في الكلام لإظهار المعنى أو تقويته، بحيث يبرز كل طرف أثر الطرف الآخر[٣]

مثال من سورة يوسف قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] ، يظهر التضاد بين الفعل (غلق الأبواب) الذي يدل على منع الآخرين، وبين القول (هيت لك) الذي يعكس الدعوة والافتتان، ما يزيد النص قوة في إيصال الفكرة وإبراز موقف زليخة النفسي[٤].

٢. المقابلة: تعريف المقابلة في اللغة تعني المواجهة أو المعاينة بين شيئين [٥].

والتعريف الاصطلاحي: هي ترتيب معنيين أو أكثر بطريقة متوازنة بحيث يقابل كل معنى مع نظيره، لتوضيح الفكرة أو التأكيد على المعنى [٦].

ومثال المقابلة ماجاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

وردت المقابلة بين (أبرئ نفسي) و(النفس أمّارة بالسوء)، مما يعكس التوازن البلاغي ويقوي إدراك المستمع لمعنى التوبة والرحمة الإلهية[٧].

٣. المبالغة:

تعريفها اللغوي: تعني الإكثار أو الوصول إلى أقصى حد[٨].

أمّا التعريف الاصطلاحي: فهو زيادة الوصف أو الحدث على الحد المألوف لإظهار شدّة الموقف أو التأثير على المتلقي [٩].

---

(١) ينظر: عمدة التحقيق في علم البيان والبديع، ص٢٠٥.

(٢) لسان العرب، مادة (ضد) ٤١٢/٨.

(٣) ينظر: عمدة التحقيق في علم البيان والبديع، ص٢١٠

(٤) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٣٥٦/٢.

(٥) ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط ،تحقيق:التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، مادة (قبل) ، ص ١٠٤٦.

(٦) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص٣١٢..

(٧) ينظر: روح المعاني ١٧٢/١٢.

(٨) ينظر: مقاييس اللغة، مادة (بلغ) ٣٤٩/١.

(٩) ينظر:عمدة التحقيق، ص٢١٥

مثال من سورة يوسف: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] فتصوير فيه لدهشة النساء أمام يوسف عليه السلام، بحيث يترك أثرًا عند القارئ ويبرز شدة الانفعال [١].

(١) ينظر المولى أبو الفداء، :روح البيان ، دار الفكر ، بيروت ٤/ ٢٤٦.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة في بلاغة سورة يوسف، يتّضح أن النص القرآني لم يكن مجرد سرد قصصي، بل جاء مؤسسًا على أرقى أساليب البيان العربي فقد تميزت السورة بثراء بلاغي متنوع، تداخل فيه علم المعاني في أسلوب الإسناد الخبري والقصر والإيجاز والإطناب والمساواة، مع علم البيان في التشبيه والاستعارة، ثم علم البديع في المحسنات اللفظية والمعنوية من جناس وسجع وترصيع وتضاد ومقابلة ومبالغة.

وقد شكّل هذا التنوع البلاغي انسجامًا فنيًّا بديعًا يرسّخ الرسالة الدينية والتربوية للسور القرآنية، ويكشف عن سرّ إعجازها الخالد، وهكذا يتجلّى أنّ القرآن كتاب هداية وبيان، جمع بين عمق المعنى وروعة المبنى، مما يجعله فوق طاقة البشر، ويثبت أنّ البلاغة القرآنية لا تُجارى.

ثبت المصادر

القرآن الكريم.
١. الألوسي، شهاب الدين. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار الكتب.
٢. ابن أبي الإصبع. بديع القرآن.
٣. ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. بيروت: دار المكتبة العصرية.
٤. ابن المعتز. البديع. القاهرة: دار الكتب العلمية.
٥. ابن عاشور، محمد الطاهر. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.
٦. ابن فارس، أحمد. مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام هارون. بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م.
٧. ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ.
٨. ابن يعيش، موفق الدين. شرح المفصل. بيروت: دار الكتب العلمية.
٩. أبو الفداء، المولى. روح البيان. بيروت: دار الفكر.
١٠. الجرجاني، عبد القاهر. أسرار البلاغة. تحقيق: محمود شاكر. القاهرة: دار المدني، ١٩٩١م.
١١. الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تحقيق: ياسين الأيوبي. بيروت: المكتبة العصرية.
١٢. الزركشي، بدر الدين. البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٨م.
١٣. الزمخشري، محمود. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م.
١٤. الزمخشري، محمود. الكشاف عن حقائق التنزيل. بيروت: دار المعرفة.
١٥. السكاكي، يوسف بن أبي بكر. مفتاح العلوم. تحقيق: نعيم زرزور. بيروت: دار الكتب العلمية.
١٦. السبكي، علي بن عبد الكافي. عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. بيروت: دار المكتبة العصرية.

١٧. الصعيدي، عبد المتعال. عمدة التحقيق في علم البيان والبديع. بيروت: دار الفكر العربي.
١٨. القزويني، الخطيب. الإيضاح في علوم البلاغة. تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة: دار الجيل، ١٩٩٦م.
١٩. القرطبي، محمد بن أحمد. الجامع لأحكام القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٠. الفيروزآبادي، مجد الدين. القاموس المحيط. تحقيق: مؤسسة الرسالة. بيروت: مؤسسة الرسالة.